التناص القرآني في الشعر الشعبي الجزائري "ديوان السلوان أنموذجا" للشاعر الحاج محمد سفيان

Quranic Intertextuality in the Algerian Popular Poetry El- Hadj Mohamed Sofiane's Poetry Collection: "Solace"

أ. مصطفى بوقلمونة

أ.د تيجاني زاوي

قسم اللغة و الأدب العربي جامعة عباس لغرور خنشلة الجزائر

مخبر الأدب الشعبي في الجزائر جمع و دراسة جامعة وهران1 أحمد بن بلة

Mustaphabouguelmouna@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/04/30 **تاريخ القبول:** 2020/08/22

الملخص :

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على ديوان الشاعر الشعبي الحاج محمد سفيان الذي يستحضر كثيرا النصوص القرآنية في شعره و يتفاعل معها ، و هذا ما يتسم به أغلب شعراء الشعر الشعبي الجزائري ، و ذلك نظرا لتكوينهم الديني فأغلبهم من خريجي الزوايا و الكتاتيب .

تهدف هذا الدراسة إلى كشف مظاهر التناص القرآني و تجلياته في شعر الحاج محمد سفيان ، مبرزا أثر الثقافة الدينية في قصائد هذا الشاعر ، و محاولا نفض غبار الإهمال عن ديوان هذا الشاعر الذي لم يعط حقه من الدراسة .

الكلمات المفتاحية : التناص ، القرآن ، الشعبي ، القصة ، الاقتباس .

Abstract

The present paper attempts to shed light on the poetry collection (Diwane) of the popular poet El-Hadj Mohamed Sofiane, in which he evoked many Quranic texts and interacted with them. This feature characterizes the majority of the Algerian popular poets due to the religious education that most of them received in Quranic and religious schools (Katateeb and Zawaya).The paper, also, aims at revealing some aspects of the Quranic intertextuality and its manifestation in Mohamed Sofiane's poetry emphasizing the impact of religious culture in his poems, and trying to draw attention to his poetry collection, which remains underexplored.

Keywords: intertextuality, the Quran, popular, story, quotation.

مقدمة :

مصطلح التناص من المصطلحات الغربية الحديثة ظهرت إرهاصاته الأولى على يد الناقد الروسي ميخائيل باختين[1] و ذلك عندما أكد على مفهوم الحوارية أو على « الطابع الحواري للنص الأدبي »[2] ، ثم ظهر جليا –لأول مرة- كمصطلح عند تلميذته "جوليا كريستيفا" في ستينات القرن الماضي ، و التناص عندها يعني أن النص يتشكل من خلال عملية إنتاج نصوص مختلفة ، و هذا ما يعرف عندها بالإنتاجية النصية ، « فتقنية التناص عندها تقوم على خلق نص يقوم على مدلولات خطابية متباينة التاريخ ، لا يمكن قراءة نص فيها معزولا عن غيره من النصوص »[3] ، و لهذا ترى كريستيفا أن التناص هو « ترحال للنصوص و تداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع و تتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى »[4] ، و بعد كريستيفا أثار مفهوم التناص كثيرا من الباحثين لعل أهمهم "رولان بارت" و "ميشل فوكو" و "دومينيك مانجو" و "أمبرتو إيكو" و "ريفاتير" و "جيرار جينيت" ، و حاول كل واحد من هؤلاء الأعلام إعطاء مفهوما للتناص يختلف عن الآخر ، و هذا ما ساعد في توسع استعمال مصطلح التناص في الدراسات الغربية و العربية ، لذا « حظيت الأشكال التي يتخذها التفاعل بين النصوص بدراسات موسعة لدى علماء البلاغة و النقد العربي من خلال الاهتمام بالمعارضات الشعرية و السرقات الأدبية ، و الاقتباس و التضمين ، و الاستشهاد و الإبداع ، و الإحالات والموازنة ، و الاكتفاء و الاحتباك ، و التمثيل و ائتلاف المعنى على المعنى ، و التلميح والتوليد، و النوادر و الاستخدام ، و المواربة و التورية ، و الاستتباع و الإشارة ، و الإدماج و التتبع »[5].

و التناص أو تداخل النصوص هو استعمال النصوص التراثية المختلفة من الشاعر أو الأديب بشكل فني لإغناء نصه الأدبي ، و للتناص آليات و تقنيات و أشكال ، ومن أشكاله التناص الأدبي ، و التاريخي ، و الأسطوري ، و الديني .

و التناص القرآني هو فرع من فروع التناص الديني ، و نقصد به حضور النص القرآني في النصوص الأدبية نثرا أو شعرا ، هذا الحضور للنص القرآني حبلت به قصائد شاعرنا الحاج محمد سفيان حيت تكاد لا تخلو أي قصيدة من قصائده من الاقتباسات القرآنية ، و لا غرابة في ذلك مادام الشاعر نشأ في بيئة بدوية محافظة معتادة على إرسال أبنائها إلى الكتاتيب من أجل حفظ كتاب الله .

و سنتعرض في هذا المقال إلى إبراز أثر الثقافة الدينية في شعره ، و التي تتجلى في اقتباسه الكثير من معاني الآيات القرآنية و تضمينها في شعره ، و في انجذابه إلى القصص القرآني وتضمين بعضه في شعره كقصة النبي سليمان عليه السلام .

تجليات التناص القرآني في شعر الحاج محمد سفيان :

أ – التناص مع ألفاظ القرآن :

لقد شكل القرآن الكريم بفضل بلاغته و فصاحته التي تحدى بها الله تعالى فصحاء العرب نصا مقدسا ، ومصدرا إعجازيا أحدث ثورة فنية على معظم التعابير التي أبتدعها العربي شعرا أو نثرا ، فللنص القرآني « خصوصية نابعة من قداسته و ألوهية مصدره »[6] ، فهو « أول النصوص التي استأثرت بعناية الشاعر المعاصر ، الذي يحمل من أبعاد اللامحدود للحياة و للإنسان »[7] ، كما « يعد مصدرا غنيا للتناص و للإلهام الشعري على مستوى الدلالة و الرؤية ، ذلك أن استحضار الخطاب الديني في الخطاب الشعري المعاصر ، يعني إعطاء مصداقية و تميز لدلالات النصوص الشعرية ، انطلاقا من مصداقية الخطاب القرآني ، و قداسته و إعجازه »[8] ، فالتناص القرآني « له هدف أدبي جمالي حيث إن أسلوبه هو الأسلوب الأمثل للغة العربية »[9] ، و قد تأثر شعراء الشعر الشعبي الجزائري على مر العصور بهذا النص المقدس و ضمنوا آياته في نصوصهم الشعرية ، و من هؤلاء شاعرنا الحاج محمد سفيان ، الذي استقى أغلب قصائده من معين القرآن الكريم ، إذ تأثر به تأثرا عظيما ، ومن دلائل هذا التأثر ما حفلت به أغلب أشعاره من ذكر الله و تعظيمه و التعبير عن مدى حبه وتعلقه به، و هذا ما يظهر جليا في قوله[10] : في قصيدته "سبحان خالق الكون"

سُبْحانْ خَالَقْ الْكَونْ الحَاصِي عْدَادْهَا رَبّ الْجَلِيلْ شَانُه عَظِيمْ الْجَاهْ
حَرْفَينْ رَادْهُمْ كَافْ أُو نُونْ اقْبَالْهَا أُو هُومَا اسْبَابْ كَوْنُه كَمَا تَرَاهْ
فَعَّالْ كُلْ قُدْرَة قَادرْ لَحْوَالْهَا خَبِيرْ حَالْ أَمْرُه لَا مَا يَخْفَاهْ

فهنا الشاعر يقر بعظمة الله و قدرته المتجلية في خلق هذا الكون و إحصاء كل شيء فيه عددا ، و المتجلية كذلك في إرادة الله المطلقة و هي قوله : للشيء كن فيكون ، فهو الفعّال لما يريد، الخبير الذي لا يخفى عليه شيء .

و ما نلمسه في هذه الأبيات هو أنها جاءت حبلى بالاقتباس من آيات قرآنية كثيرة و هي : قوله تعالى : « وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[11] ، (سُبْحانْ خَالَقْ الْكَونْ الحَاصِي عْدَادْهَا) ، و قوله أيضا : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[12] ، (حَرْفَينْ رَادْهُمْ كَافْ أُو نُونْ اقْبَالْهَا) ، و في قوله : « فعال لما يريد ... »[13] ، (فَعَّالْ كُلْ قُدْرَة قَادرْ لَحْوَالْهَا) ، و في قوله كذلك : «

إن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ و لا في السّماءِ »[14] ، (خَبِيرٌ حَالُ أَمْرُه لَا مَا يَخْفَاهْ) ، كما يرشدنا الشاعر أيضا في هذا الشطر إلى قوله تعالى : « لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[15] .

كما تتجلى عظمة الله و تقديسه عند شاعرنا في تنزيهه عن مماثلة و مشابهة مخلوقاته ، و ذلك في قوله في مطلع قصيدته "ربي سيدي"[16] :

رَبِّي سِيدِي يَا الْعَالِي مُولَانَا آ سُبْحَانَكْ يَالِيْ مَالَكْ مِيثَالْ

و في قوله أيضا في مطلع قصيدته "سبحان الله عالم الخفا"[17] :

سُبْحَان الله عَالمْ الخَفَا وَاحَدْ مَعْظَمْ شَانَكْ يَالِّي مَالَيْك اشْبِيهْ

و يتجلى أيضا تقديس الله و تعظيمه عند الشاعر في تنزيه الله عن رؤية مخلوقاته لذاته القدسية وذلك في قوله في قصيدته "باسمك يا مجيب"[18] :

يَا مَنْ تَرَى دُونْ مَا تَرَاكْ ابْصَارْ حَاضَرْ نَاضَرْ يَالِّي مَا لَيْكْ اشْبِيهْ

فالشاعر في هذا البيت نزّه الله تعالى عن رؤية خلقه له و عن مماثلتهم و مشابهتم له ، فاستحضر الآيتين الكريمتين ، الأولى : « لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَار»[19] ، و الثانية : « *لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ* »[20] .

و قد يعتمد الشاعر في التضمين على بعض ألفاظ الآية الأبين منها و الأكثر توجيها لها مثل قوله[21] :

دَحَّا الأَرضْ رَصَّا لَجْبَالْ اَوْتَادْهَا وَابْحُورْ فَايْضَة مَنْ كَثْرَة لَمْيَاهْ

ففي صدر البيت الأول يحيلنا الشاعر -من خلال ارتكازه على بنية الأسلوب القرآني المتمثلة في توظيفه لجملتي "دحا الأرض" و "رسى الجبال" - إلى قوله تعالى : « وَالْأَرْض بَعْد ذَلِكَ دَحَاهَا »[22] ، و إلى قوله أيضا : « وَالْجِبَال أَرْسَاهَا »[23] .

ويشير الشاعر في موضع آخر إلى مدار الشمس و جريانها و ذلك في قوله[24] :

اكْوَاكَبْ النَّجُومْ الشَّمْسْ اُو مَدَارْهَا وَابْلاَ ارْكَايِزْ[25] مَرْفُوعْ اسْمَاهْ

فالحديث عن مدار الشمس وجريانها مقتبس من قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »[26] .

وفي الشطر الثاني يتناص الشعر مع قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا »[27] .

و في قوله[28] :

وَاحَدْ أَحَدْ هُو الْبَاقِي لاَ يَزَلْ سُبْحَانْ اللهْ خَالِقْ عَظِيمْ الْجَاهْ

الشطر الأول هو إعادة كتابة بطريقة امتصاصية تقوم على التحوير و التغيير للنص الغائب ، وهو قوله تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ »[29].

و يستحضر الشاعر النص القرآني حتى في وصف محبوته و ذلك في قصيدته " عيني لمحت نور" إذ يقول[30] :

عَيْنِي لَمْحَتْ نُورْ بَاشْعَاعُه يَسْنِي مَثْلُه فَجْرَ اَلِّي اتْنَفَّسْ عُقْبَ اللَّيلْ

فمحبوبة الشاعر مثلها مثل النور الذي يبدد كل ظلام ، فحضورها يغير ملامح الكون من ظلمة الليل إلى نور النهار ، فالشطر الثاني في رصانة ألفاظه و قوة معناه كروعة إقبال ضوء النهار المبدد لظلام الليل ، و هذه الجمالية التي تعزز بها بيت الشاعر مستوحاة من جمالية النص القرآني الذي يقول فيه المولى عز و جل : « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ »[31].

فالشاعر في عجز هذا البيت أعاد كتابة النص القرآني أي النص الغائب ، وفق و عيه الفني بحقيقة هذا النص شكلا و مضمونا ، وهذا ما يسمى بالتناص الامتصاصي أو الإحالي ، فاستلهم هذا النص للتعبير عن المعنى الذي يريده ، و وظفه بشكل جميل و منحه الصياغة الفنية التي تتلاءم مع السياق العام للمراد الذي يصبو إليه .

و لا يزال شاعرنا يغرف من معاني القرآن الكريم في معظم قصائده و هذا ما يجعل القارئ مشدودا إلى أشعاره ، و التي منها هذين البيتين الذين بنيا على نسج فريد لم يسبق لهما مثيل في الشعر الشعبي[32] :

أَشْجَارْ وَالعْشُوبْ اتْخَلْفَتْ اصْنَافْهَا وَاطْيُورْ زَاقْرَة سَبَّاحَة للهْ

وَامْنَ ادْوَابْ مَا تَحْصِي كَمْ انْوَاعْهَا أُو هَا شُوفْ وَاشْ تَحْصِي فِي مُلْكَ اللهْ

فالشاعر في هذين البيتين استحضر قوله تعالى : « يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »[33] ، و قوله أيضا : « يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[34] .

إن المتأمل في هذين البيتين يبدو له جليا أن جملة "سباحة لله" جملة محورية تؤدي لحمة بنيوية أساسية تُشَد إليها جميع الجمل الأخرى الواردة في هذين البيتين ، حيث يمكن أن تربطها بكل أنواع الكائنات المذكورة في البيتين ، فلا يمكنك الفصل بين البيتين ، و إلا شوهت جمال البناء الذي اهتدى إليه الشاعر ، و يمكن أن نعبر عن هذه الشبكة العلائقية بين هذه الجمل من خلال هذا الشكل البياني الذي يبين لنا أن العبارة المحورية "سباحة لله" مرتبطة بكل هذه الكائنات التي تسبح جميعا لله عز و جل .

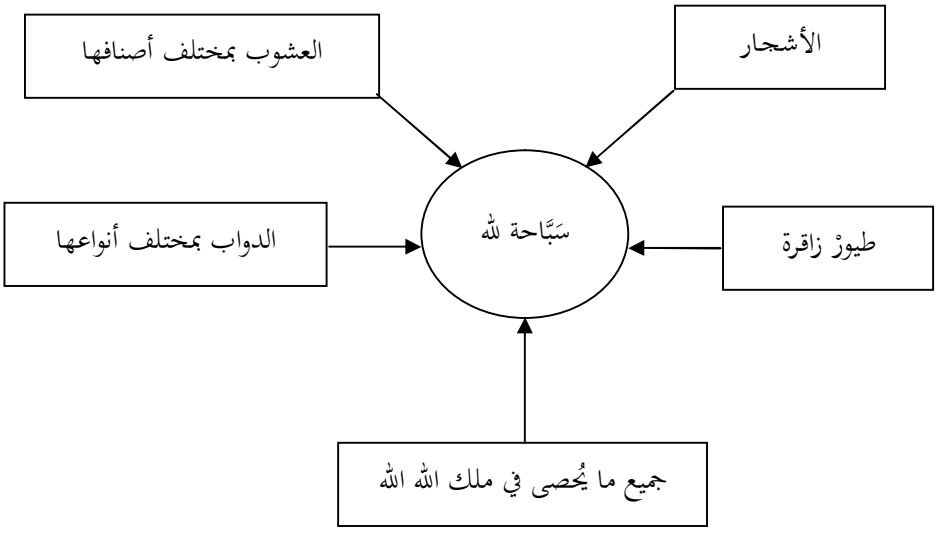

و يستمر الشاعر في اغترافه من النص القرآني و دورانه حول معانيه ، و من أمثلة ذلك قوله[35]:

كَمَا ابْدَى النَّشْأَة فَالْخَلْقَة عَادْهَا فَعَّالْ مَا اِيرِيدُه هُوَ يَرْضَاهْ

فشطر هذا البيت يحيلنا فيه الشاعر إلى معنى قوله تعالى :« يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »[36].

ونقف مليا عند هذا الاقتباس قصد التماس الصواب والتدقيق في التعبير لاستيفاء المعنى المطلوب المذكور في الآية ، لقد قال الشاعر: (كما ابدى النشأة في الخلقة عادها) ، لقد عبر الشاعر هنا بالفعل الماضي " عادها - أعادها " بينما الصيغة المستخدمة في القرآن هي صيغة المضارع نعيده " كما بدأنا أوّل خلق نعيده " ، فالشاعر أراد عن طريق الاستيفاء البلاغي الدال على التصديق المسبق و الإيمان اليقين ما قاله الله قبل حدوثه ، وبه يتم تصديق وعد الله قبل حصول ما وعد الله به وإن لم يشهد الشاعر ذلك .

ب – التناص مع القصص القرآني :

إن القارئ لأشعار الشاعر الحاج محمد سفيان يبدو له جليا تأثر الشاعر بالقصص القرآني ، و نستشق هذا التأثر من خلال استدعائه لقصة ابني آدم عليه السلام "قابيل و هابيل" ، و استدعائه لقصص الأنبياء كقصة النبي يوسف و أيوب و سليمان عليهم السلام .

ففي قصة ابني آدم يقول الشاعر[37]:

وَاقْرَى هَابَلْ قَصْتُ ذِيكْ اقْصِيَا قَتْلُه قَابَلْ ذَاكْ رَبِّي رَادْ اعْلِيهْ

اضْحَى تَالَعْ فَالصْحُورْ الْمَخْلِيَا هَايِمْ سَايِحْ مَاعْرَفَشِ وَيْنْ اِتِيهْ

فالشاعر في البت الاول استدعى الآيتين الكريمتين و هما : قوله تعالى : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »[38] ، و قوله أيضا : « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ »[39] ، أما البيت الثاني فأشار فيه الشاعر إلى أن القاتل قابيل من جرّاء فعلته أضحى تالعا تائها لا يعرف ماذا يفعل، و هنا الشاعر يشير ضمنيا إلى قوله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ »[40] ، فهذا الحيوان (الغراب) كان أكثر بصيرة من الإنسان القاتل الذي أعمى الشيطان بصيرته فلم يعرف كيف يواري جثة أخيه .

و يبدو الشاعر قد عاش حقد الإخوة و حسدهم ، ولم يجد ما يعكس له هذه التجربة القاسية التي مر بها ، إلا أن يلمّح لنا بقصة النبي يوسف و ما عاناه من إخوته ، فيقول[41]:

قُشْ الْخَاوَة ثَارْهُمْ جَارْ اعْلِيَا وَاقْرَى يُوسَفْ شُوفْ مَاذَا دَارُوا فِيهْ

امْلاَزْمْنِي ضُرْهُمْ طَالْ اعْلِيَا وَالِّي مَا عَدَّا الْمَكْتُوبْ اِيعَدِّيهْ

يقر الشاعر في هذين البتين بمدى معاناته من إخوته ، هذه المعاناة التي لازمته و طالت عليه كما طالت معاناة النبي يوسف عليه السلام واستمرت لعقود من الزمن .

و في موضع يشير الشاعر إلى قصة النبي أيوب و هو رمز للصبر و عدم اليأس من رحمة الله ، فيقول[42]:

أُو قَصَّة يُوبْ ابْلاَهْ رَبِّي بَابْلَيَا فَوَّضْ أَمْرُه الْخَالْقُه مَتْوَحَدْ بِيهْ

فالشاعر امتص معنى هذا البيت من قوله تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »[43].

و قد أبدع الشاعر في استدعاء قصة النبي سليمان عليه السلام الواردة في سورة النمل ، فقدمها لنا في شكل مشاهد مرتبة وفق تراتب القصة القرآنية ، أي محاولا السير مع تراتب السياق القرآني مشهدا بمشهد ، محافظا بذلك على سمت الفن القصصي القرآني ، وهذا التوافق و الإنسجام يظهر جليا في قوله[44]:

وَيْنُه سُلَيْمَانْ بَاجْنُودْ اقْوِيَا؟ آنْسْ أُوجَنْ أُورِحْ جَمْلَة طَاعَتْ لِيهْ

حَتَى النَّمْلَة خَايْفَة ثَانِي هِيَّ جَيْشُه طَاعَنْ وَادْنَا جَا مَتْعَنِيهْ

قَالَتْ حِينْ اِيمُرْ مَا تَبْقَى حَيَّة خُفْتُه يَعْفَسْنَا أُو مَا يَشْعُرْشِي بِيهْ

أُو دَخْلَتْ تَجْرِي فِي امْسَاكَنْ مَخْفِيَة وَتْبَسَمْ مَنْ قَوْلْهَا وَاسْتَعْجَبْ فِيهْ
وَاشْكُرْ رَبِّي نَعَمْتُه ذِيكْ أُو ذِيَّا حِينْ انْعَمْ اعْلِيهْ وَعْلَى وَالِدَيهْ
نَادَهُمْ فَالْحِينْ دَارُوا جَمْعِية اتْفَقَدْ جَيْشُه عَارْفُه جَمْلَة حَاصِيهْ
وَيْنْ الْهُدْهُدْ غَابْ مَنْ ذَ الْحَيْحَايَة اِيوَّجَّدْ رُوحُه لَلْقَضَاء يَتْهَيَّأْ لِيهْ
جَيْتَكْ عَاجَلْ بَالْخْبَرْ عَفْ اعْلِيَا غُبْتْ اعْلِيكُمْ سَالْنِي خَبْرِي نَحْكِيهْ
نَحْكِيلَكْ ابْقَصْتِي ذِيكْ اقْصِيَّة يَا نَبِي اللهْ أَمْرَكْ مَا نَعْصِيهْ
كُنْتْ امْسَافَرْ طَالَتْ الْمُدَّة بِيَّا وَاتْلَقَيْتْ ابْقُومْ رَبِّي شَرْكَتْ بِيهْ
وَاتْعَجَبْتْ الْقَيْتْ مَرْأَة ذَاكِيَّة قَالُوا ذِي بَلْقِيسْ : مُلْكْ اتْسَيَّرْ فِيهْ
مَمْلَكْة مَنْ كُلْ جِهَة مَسْوِيَّة ذِيكْ الْعَجْبَة عَرْشْهَا مَا لَيْهْ اشْبِيهْ
دَارْلْهَا مَرْسُولْ عَاجِلْ بَابْرَيَة يَأْتُونِي فَالْحَالْ نَبَّهَا تَنْبِيه
وَأَتُوا مُسْلِمِينْ بْلاَ كِبْرِيَا عَرْشَكْ كَامَلْ قَاعْ نَاسُه وَامْوَالِيهْ
انْشَاوُرْكُمْ يَا ارْجَالْ اللَّزْمِيَّا وَافْتُونِي فِي حَالْ أَمْرِي حُرْنَا فِيهْ
قَالُوا لِيهَا أُوجُودْ رْجَالْ اقْوِيَّا وَافْرَاسِينْ اجْيُوشْنَا عَرْشَكْ تَحْمِيهْ
شُوفِي بَلِّي تَأْمْرِي بِيهْ انْتِيَّا قَالَتْ رَانِي عَالْمَة الأَمْرْ أُو نَدْرِيهْ
الْمَلِيكْ اعْوَايْدُه هَذِي هِيَّا مَا يَرْحَمْشِي كُلْ مَنْ جَا بَينْ اِيدَيْهْ
وَالْفَسَادْ اِيعَمْ فِي هَذَا الْقَرْيَة اِيذَّلْ الْعَزِيزْ وَالطَّايِقْ يَخْزِيهْ
مَا يَنْفَعْنِي قِي نَرْسَلْ هْدِيَة نَسْتَخْبَرْ وَانْشُوفْ حَالُه نَعْلَمْ بِيهْ
وَارْفَضْ سُلَيْمَانْ مَا رَسْلَتْ هِيَّا اعْطَانِي رَبِّي خَيْرْ مَنْ مَعْطَا غَيْرِيهْ
يَا مَرْسُولِي رُوحْ عَاجِلْ عَزْمِيَّا نَرْسَلْ جَيْشِي بَرْكُمْ قَاعْ انْغَطِيهْ
وَانْخَرَجْكُمْ صَاغْرِينْ أُو ذَلْيَّا وَانْحَذَرْكُمْ وَطَنْكُمْ جَمْلَة نَخْلِيهْ
تْجِيبُولِي عَرَشْهَا بَينْ اِيدَيَّا وَاعْطَى أَمْرُه لَجْنُونْ أُو طَاعَتْ لِيهْ
وَاحَدْ مَنْهُمْ قَالْ فَالْحِينْ اهْنَايَا وَاخُرْ فَاتُه قَالْ : فِي لَحْظَة نَاتِيهْ
تَتْعَجَبْ وَاتْحَيَّرْ: قُدْرَة خَافِيَّة أُوفِي رَمْشَة مَنْ الْعَينْ:وَجْدُه بَينْ اِيَدَّيْهْ
شُوفِي عَرْشَكْ صُورْتُه : هَذِي هِيَّا؟ هَذَا الْعَرْشْ اتْقُولْ عَرْشِي يَشْبَهْ لَيْهْ
أُو دَخْلَتْ صَرْحُه حَاسَبْتُه لُجِّيَا وَاتْكَشْفُو سِيقَانْهَا ابْلاَ مَا تَدْرِيهْ
قَالَتْ رَبِّي ظَالْمَة عَفْ اعْلِيَّا سَلَمْتْ للهِ طَايْعَاتُه مَا تَعْصِيهْ
هَا شُفُو مَا صَارْ فِي دَارْ الدَّنْيَا قُدْرَة رَبِّي فَاقَتْ الْمُلْكْ ابْأَسْرِيهْ
قَدَّرْ رَبِّي مَاتْ مَوْتَة خَافِيَّة ذِيكْ الْبَدْعَة قِي دُودَة عَلْمَتْ بِيهْ
وَاظْهَرْ خَبْرُه شَاعْ فِي كُلْ اثْنِيَّا تَتْعَجَبْ وَاتْحِيرْ: فِي مَوْتُه تَنْبِيهْ

وَاتْلَفْ مُلْكْ مَا بْقَى غَيْرْ احْكَايَا يَا حَصْرَاهْ اَجْيَالْ تَقْرَى وَاتْقَرِيهْ

يفتتح الشاعر قصيدته بتساؤل يراد به أخذ العظة و الاعتبار ، فيقول :

وَيْنُه سُلَيْمَانْ بَاجْنُودْ اقْوِيَا؟ اَنْسْ اُوجَنْ اُوريحْ جَمْلَة طَاعَتْ لِيهْ

يشير الشاعر في هذا البيت إلى ذلك الملك العظيم المتفرد الذي أعطي للنبي سليمان من قبل الله تعالى ، والذي سخر له جميع مخلوقاته من إنس و جن و ريح ، و هذا تضمين للآيتين الكريمتين ، قوله تعالى : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ »[45] ، وقوله أيضا : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ »[46] .

ثم استدعى الشاعر بعد ذلك شخصية النملة التي تملّكها الخوف والرهبة من تلك القوة الحاشدة التي يملكها سيدنا سليمان عليه السلام ، فيقول :

حَتَى النَّمْلَة خَايْفَة ثَانِي هِيَّ جَيْشُه طَاعَنْ وَادْنَا جَا مَتْعَنِيهْ

قَالَتْ حِينْ اِيمُرْ مَا تَبْقَى حَيَّة خُفْتُه يَعْفَسْنَا أُو مَا يَشْعُرْشِي بِيهْ

أُو دَخْلَتْ تَجْرِي فِي امْسَاكَنْ مَخْفِيَة وَتْبَسَمْ مَنْ قَوْلْهَا وَاسْتَعْجَبْ فِيهْ

استدعى الشاعر في هذه الأبيات قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا »[47] .

إن الشاعر في عجز البت الأخير أشار إلى تعجب النبي سليمان من موقف هذه النملة التي علمت به و بجيشه ، و التي سمع سيدنا سليمان ما قالته لصواحبها ، وهذه من النعم التي أنعم الله بها على سيدنا سليمان ، و نعم الله تستوجب شكره عليها ، و هذا ما يؤكده الشاعر قائلا :

وَاشْكُرْ رَبِّي نَعَمْتُه ذِيكْ أُو ذِيَّا حِينْ انْعَمْ اعْلِيهْ وَعْلَى وَالِدَيهْ

و هذا البيت تضمين لقوله تعالى : « وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ »[48] .

ثم ينتقل الشاعر إلى مشهد آخر يستحضر فيه شخصية رسول سيدنا سليمان و هو الهدهد ، الذي غاب عن اجتماع النبي سليمان بجنوده ، فيقول :

نَادَهُمْ فَالْحِينْ دَارُوا جَمْعِية اتْفَقَدْ جَيْشُه عَارْفُه جَمْلَة حَاصِيهْ

وَيْنْ الْهُدْهُدْ غَابْ مَنْ ذَ الْحَيْحَايَة اِيوَّجَّدْ رُوحُه لَلْقَضَاء يَتْهَيَأْ لِيهْ

ففي البيت الأخير أحالنا الشاعر إلى قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ »[49] .

لقد أشار الشاعر في هذا البيت إلى غياب و افتقاد النبي سليمان للهدهد ، و هذا الغياب للهدهد عن مواكبة الاحتشاد الذي دعا إليه سيدنا سليمان ، سيلزمه العقوبة و هي : إما تعذيبه أو قتله ، أي لا ينجو من إحدى الاثنتين : العذاب الشديد أو الذبح إلا أن يأتي بحجة ظاهرة فيها عذر لغيبته ، فالعفو عنه وارد ، ولكنه لا يكون إلا بتقديم الحجة البينة و الدليل المقنع الدال على أن الهدهد لم يكن من المتهاونين أو الرافضين لما دعا إليه سيدنا سليمان من احتشاد عام .

يقول الشاعر في هذا المشهد على لسان الهدهد :

جَيْتَكْ عَاجَلْ بَالْخْبَرْ عَفْ اعْلِيَا غُبْتْ اعْلِيكُمْ سَالْنِي خَبْرِي نَحْكِيهْ

نَحْكِيلَكْ ابْقَصْتِي ذِيكْ اقْصِيَّة يَا نَبِي اللهْ أَمْرَكْ مَا نَعْصِيهْ

لقد أبدع الشاعر في هذا التصوير الذي لا يحمل معنى التراخي و التباطؤ: " جَيْتَكْ عَاجَلْ بَالْخْبَرْ" ، وهذا استدعاء للنص القرآني: « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ »[50] ، و أبدع أيضا حين جعل الهدهد يخاطب في سيدنا سليمان الجانب النبوي : " يَا نَبِي اللهْ أَمْرَكْ مَا نَعْصِيهْ" ، لأن جانب النبوة يمثل الحق و العدل و الرحمة المسداة [51] .

ثم يشير الشاعر إلى سبب غياب الهدهد قائلا على لسانه :

كُنْتْ امْسَافَرْ طَالَتْ الْمُدَّة بِيَّا وَاتْلَقَيْتْ ابْقُومْ رَبِّي شَرْكَتْ بِيهْ

وَاتْعَجَبْتْ الْقَيْتْ مَرْأَة ذَاكِيَّة قَالُوا ذِي بَلْقِيسْ : مُلْكْ اتْسَيَّرْ فِيهْ

مَمْلَكْة مَنْ كُلْ جِهَة مَسْوِيَّة ذِيكْ الْعَجْبَة عَرْشْهَا مَا لَيْهْ اشْبِيهْ

يبين لنا الشاعر في هذه الأبيات أن هذا الطائر الهدهد على دراية تامة برسالة الأنبياء و هي : توحيد الله و عدم الإشراك به، و لذلك أظهر امتعاضه مما بدا من هؤلاء القوم الذين لقبهم : " وَاتْلَقَيْتْ ابْقُومْ رَبِّي شَرْكَتْ بِيهْ" ، و هذا ما يتوافق مع قوله عز و جل : « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »[52] .

كما نلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر أورد اسم الملكة بلقيس رغم أن النص القرآني لم يصرح باسمها " إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ" ، و هذا من أثر ما اطلع عليه في كتب التفاسير .

ثم ينتقل الشاعر إلى رد فعل سيدنا سليمان على ما جاء به الهدهد من أنباء ، فيقول :

دَارْلْهَا مَرْسُولْ عَاجِلْ بَابْرَيَة يَأْتُونِي فَالْحَالْ نَبَّا تَنْبِيه

وَأَتُوا مُسْلِمِينْ بْلاَ كِبْرِيَا عَرْشَكْ كَامَلْ قَاعْ نَاسُه وَامْوَالِيهْ

و يستدعي الشاعر في هذين البيتين قوله تعالى : « اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ »[53] .

و قد اقتصر الشاعر على قوله تعالى : " اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا" بما أورده في قوله : " دَارَلْهَا مَرْسُولْ عَاجِلْ بَابْرَيَة" ، و على قوله تعالى : " أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" بقوله : " وَأَتُوا مُسْلِمِينْ بْلاَ كِبْرِيَا" ، و قد اعتمد الشاعر في صدر البيت الثاني "وَأَتُوا مُسْلِمِينْ بْلاَ كِبْرِيَا" تقنية التقديم و التأخير و ذلك للضرورة الشعرية المتمثلة في الحفاظ على القافية ، فقدم و"أَتُوا مُسْلِمِينْ" على " بْلاَ كِبْرِيَا" ، مخالفا بذلك السياق القرآني الذي قدم العلو و الكبر على الإتيان مسلمين "أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" .

و بعدها يحيلنا الشاعر إلى مشهد آخر و هو ردة فعل الملكة بلقيس على طلب النبي سليمان " أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" ، فيصور لنا هذا المشهد الذي تتراءى فيه بلقيس مستشيرة لأهل الحل و العقد و أولي الرأي عندها قائلا :

انْشَاوُرْكُمْ يَا ارْجَالْ اللَّزْمِيَّا وَافْتُونِي فِي حَالْ أَمْرِي حُرْنَا فِيهْ
قَالُوا لِيهَا أُوجُودْ رْجَالْ اقْوِيَّا وَافْرَاسِينْ اجْيُوشْنَا عَرْشَكْ تَحْمِيهْ
شُوفِي بَلِّي تَأْمْرِي بِيهْ انْتِيَّا قَالَتْ رَانِي عَالْمَة الأَمْرْ أُو نَدْرِيهْ
الْمَلِيكْ اعْوَايْدُه هَذِي هِيَّا مَا يَرْحَمْشِي كُلْ مَنْ جَا بَينْ اِيدَيْهْ
وَالْفَسَادْ اِيعَمْ فِي هَذَا الْقَرْيَة اِيذَّلْ الْعَزِيزْ وَالطَّايِقْ يَخْزِيهْ

استحضر الشاعر في هذه الأبيات قوله تعالى : « قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ »[54] .

نلاحظ في البيتين الأخيرين أن الملكة بلقيس على دراية تامة بطبائع أصحاب المُلك و هي الظلم القهر و الإفساد ، خاصة إذا خلا هذا المُلك من طاعة الله و خشيته ، و لهذا أرادت أن تختبر هذا الملك (النبي سليمان) ، فانتهى بها الأمر إلى أن ترسل له هدية مختبرة بذلك ردة فعله ، فعادة الملوك لا يردون الهدايا ، إلا إذا كان هذا المُلك هبة و هبها الله لعبده فيغنيه بذلك عن هدايا و هبات البشر ، يقول الشاعر على لسان بلقيس :

مَا يَنْفَعْنِي قِي نَرْسَلْ هْدِيَة نَسْتَخْبَرْ وَانْشُوفْ حَالُه نَعْلَمْ بِيهْ

و يتقاطع الشاعر في هذا البيت مع قوله تعالى : « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ »[55] .

لكن النبي سليمان الذي أعطاه الله ملكا دون غيره من الخلائق رفض هديتها ، و أمر جنوده بأن يأتوه بها و بعرشها ، يقول الشاعر مصورا لنا هذا المشهد :

وَارْفَضْ سُلَيْمَانْ مَا رَسْلَتْ هِيَّا اعْطَانِي رَبِّي خَيْرْ مَنْ مَعْطَا غَيْرِيهْ
يَا مَرْسُولِي رُوحْ عَاجِلْ عَزْمِيَّا نَرْسَلْ جَيْشِي بَرْكُمْ قَاعْ انْغَطِيهْ
وَانْخَرَجْكُمْ صَاغْرِينْ أُو ذَلْيَّا وَانْحَذَرْكُمْ وَطَنْكُمْ جَمْلَة نَخْلِيهْ
تْجِيبُولِي عَرَشْهَا بَينْ اِيدَيَّا وَاعْطَى أَمْرُه لَجْنُونْ أُو طَاعَتْ لِيهْ

يتناص شاعرنا في هذه الأبيات مع قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ »[56] .

لقد أشار الشاعر في هذه الأبيات إلى رفض النبي سليمان هدية الملكة بلقيس ، و إتخاذه موقف عاجل خاطب فيه جنده طالبا منهم المجيء بعرشها قبل مجيئهم مسلمين ، و هذا ما أثبته الشاعر في البيت الأخير :

تْجِيبُولِي عَرَشْهَا بَينْ اِيدَيَّا وَاعْطَى أَمْرُه لَجْنُونْ أُو طَاعَتْ لِيهْ

و بعد أمر سيدنا سليمان لجنوده ، أجابه أحدهم و هو عفريت من الجن قائلا : « قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ »[57] ، و أجاب آخر و هو من الإنس يدعى "آصِفُ بنُ بَرْخَيا"[58] قائلا : « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ »[59] ، و قد امتص الشاعر معنى هاتين الآيتين قائلا :

وَاحَدْ مَنْهُمْ قَالْ فَالْحِينْ اهْنَايَا وَاخُرْ فَاتُه قَالْ : فِي لَحْظَة نَاتِيهْ

فأحد جنوده قال : في الحين قبل أن تقوم من مجلسك يكون عرشها بين يديك ، أما الآخر الذي عنده علم من الكتاب فقال : آتيك بعرشها قبل ارتداد أجفانك ، و لهذا الشاعر عبر عن هذا الذي أوتي علم من الكتاب بالتفوق قائلا : "وَاخُرْ فَاتُه قَالْ : فِي لَحْظَة نَاتِيهْ" ، و معنى كلمة "ناتيه" أي أجيء به .

و هذه القدرة الفائقة لمن أوتي علم من الكتاب جعلت شاعرنا يقف حائرا متعجبا ، فيقول :

تَتْعَجَبْ وَاتْحَيَّرْ : قُدْرَة خَافِيَّة أُوفِي رَمْشَة مَنْ الْعَينْ :وَجْدُه يَينْ اِيَدَّيْهْ

ثم يصور لنا الشاعر مشهد مجيء الملكة بلقيس إلى سيدنا سليمان و الحوار الذي دار بينهما ، فيقول :

شُوفِي عَرْشَكْ صُورْتُه : هَذِي هِيَّا؟ هَذَا الْعَرْشْ اتْقُولْ عَرْشِي يَشْبَهْ لَيْهْ

و يضمّن الشاعر في هذين البيتين قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ »[60].

لقد عبر النص القرآني عن شكل عرش بلقيس بقوله : أهكذا عرشك؟ و لم يقل أهذا هو عرشك؟ و لم تجب صاحبة العرش بقولها إنه هو ، بل قالت : كأنه هو ، و هذا ما يتوافق مع قول شاعرنا : "هَذَا الْعَرْشْ اتْقُولْ عَرْشِي يَشْبَهْ لَيْهْ" .

ثم يتدرج الشاعر مع السياق القرآني و ينتقل إلى مشهد آخر و هو دخول الملكة بلقيس صرح سيدنا سليمان عليه السلام فيقول :

أُو دَخْلَتْ صَرْحُه حَاسَبْتُه لُجّيَا وَاتْكَشْفُو سِيقَانْهَا ابْلاَ مَا تَدْرِيهْ
قَالَتْ رَبّي ظَالْمَة عَفْ اعْلِيَّا سَلَمْتْ للهِ طَايْعَاتُه مَا تَعْصِيهْ

و من خلال هذين البيتين ختم الشاعر مشهد النبي سليمان مع ملكة سبأ ، و الذي انتهى بإسلامها ، مستحضرا بذلك المشهد الذي صوره النص القرآني في قوله تعالى : « قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[61] .

نلاحظ في هذين البيتين أن الشاعر ختمهما بقوله على ملكة سبأ : "سَلَمْتْ للهِ طَايْعَاتُه مَا تَعْصِيهْ" ، أي أسلمت لله و لم يقل سَلَمْتْ لسليمان و هذا ما يوافق ذيل الآية الكريمة "وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" ، و هذا هو التوحيد الخالص لله وحده لا شريك له .

ثم ينتقل الشاعر إلى موت صاحب هذا الملك العظيم الذي لم يُؤتى لأحد من الخلائق كلها ، فقرن ما حدث لسيدنا سليمان الملك بقدرة الله الفائقة التي تتجاوز كل ما يمكن أن يعرف من أنواع الملك ، يقول الشاعر:

هَا شُفُو مَا صَارْ فِي دَارْ الدَّنْيَا قُدْرَة رَبّي فَاقَتْ الْمُلْكْ ابْأَسْرِيهْ

ثم يقول :

قَدَّرْ رَبّي مَاتْ مَوْتَة خَافِيَّة ذِيكْ الْبَدْعَة قِي دُودَة عَلْمَتْ بِيهْ

أشار الشاعر في هذا البيت إلى قضاء الله و قدره و هو وفاة صاحب هذا الملك العظيم ، وفاة جهلها كل الذين كانوا تحت سلطان قبضته ، إلا أحقر مخلوقات الله التي كانت سببا في الإعلان عن موته دون سابق دراية منها ، مستدعيا الشاعر بذلك قوله تعالى : « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ »[62] .

و يختم الشاعر هذه القصة القرآنية بأخذ العبرة من موت هذا الملك و زوال ملكه ، ففي موته و أفول ملكه تنبيه للغافلين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، هذا الملك العظيم الذي أصبح مجرد حكاية تقرأها الأجيال و تدرّسها للآخرين جيلا بعد جيل لأخذ العبرة ، يقول الشاعر:

وَاظْهَرْ خَبْرُه شَاعْ فِي كُلْ اثْنِيَّا تَتْعَجَبْ وَاتْحِيرْ: فِي مَوْتُه تَنْبِيهْ
وَاتْلَفْ مُلْكْ مَا بْقَى غَيْرْ احْكَايَا يَا حَصْرَاهْ اَجْيَالْ تَقْرَى وَاتْقَرِيهْ

خاتمة :

نخلص في الأخير –من خلال هذه الدراسة التي حاولنا أن نجمع فيها بين الإيجاز الذي لا يخل ، و الإسهاب الذي لا يمل- ، إلى جملة من النتائج :

1- إن أثر الثقافة الدينية بارز في معظم نصوص شعراء الشعر الشعبي الجزائري ، فمنذ صغرهم نشأوا على ارتياد الزوايا والكتاتيب و المساجد و تربوا على تعاليمها وقواعدها ومبادئها ، و لهذا أغلبهم تأثروا بالنص القرآني حفظا و قراءة وسماعا ، و أعادوا كتابته (توظيفه) بمستويات فنية متفاوتة كل على حسب كفاءته و وعيه بالبناء الشعري ، فتارة بالاجترار الذي يقوم على الاقتباس الحرفي ، و تارة أخرى بالامتصاص الذي يعول على الاستمداد الإحالي أو الإشاري ، أي تارةً يعيد الشاعر كتابة النص الغائب بطريقة اجترارية صامتة وتارة يوظفه بطريقة امتصاصية مباشرة ، تأخذ من النص الغائب بقدر ما يتطلبه التجديد ومواصلة الإبداع في النص الحاضر ، و هذا ما لمسته لدى شاعرنا الحاج محمد سفيان الذي يستحضر العديد من الآيات القرآنية و القصص القرآنية ليوشح بها أشعاره و من ثم تبدو نصوصه في علاقة تداخل وتشابك و اقتران بالنص القرآني ، و هذا ناتج عن تشبعه بروح الثقافة الدينية التي اكتسبها من الكتاتيب التي ارتادها ومن مجالس الأفراح و الأقراح التي كان يحضرها و يقرأ فيها القرآن جماعة مما زاد في تعلقه بالقرآن الكريم ألفاظا و معان .

2- إن الشاعر على إحاطة كبيرة بالنصوص القرآنية ، و التي راجت معانيها في ثنايا شعره بطريقة لافتة للنظر ، فجعلت شعره يتضوع بعطر هذه النصوص التي أمكنته من ربط المتلقي بأجواء النص القرآني ، و الوصول به إلى المعاني التي يهدف من خلالها شاعرنا إلى تنوير عقل هذا المتلقي ، و لفت انتباهه عن طريقها إلى قدرة الله و عظمته ، إلى توحيده ، إلى روعة خلقه ، إلى قصص القرآن ... إلى غيرها من المعاني التي تشرق من روح القرآن الكريم .

3- إن توظيف النص القرآني في النصوص الشعرية الشعبية يضفي على هذه النصوص جمالا و سموا من جهة ، ومن جهة أخرى يقوم بدور المساهمة الثقافية الدينية و ترويجها و تقريب معانيها بأسلوب فني يفهمه أغلب القرّاء بمختلف مستوياتهم "الأمي و المثقف" ، و بالتالي يتكون لدى القرّاء زاد معرفي من الثقافة الدينية ، خاصة الذين حرموا من نعمة القراءة و الكتابة .

الهوامش :

[1] - نبيل علي حسين ، التناص في شعر النقائض "دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائض جرير و الفرزدق و الاخطل" ، دار كنوز المعرفة للنشر و التوزيع عمان الأردن ، ط1 ، 2010 ، ص 33 .

[2] - يوسف وغليسي ، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر ، لبنان ، ط1 ، 2008 ، ص 391

[3] - نبيل علي حسين ، التناص في شعر النقائض ، مرجع سابق ، ص 35 .

[4] - جوليا كريستيفا ، علم النص ، تر: فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب ، ط2 ، 1997 . ص 21 .

[5] - عزة شبل محمد ، علم لغة النص "النظرية و التطبيق" ، تق : سليمان العطار ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط2 ، 2009 ، ص 80 .

[6] - أبو زيد نصر حامد ، مفهوم النص "دراسة في علوم القرآن" ، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع بيروت لبنان ، دط ، 1996 ، ص 19 .

[7] - مصطفى السعدني ، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ، دار المعارف القاهرة ، دط ، 1998 ، ص 237،238 .

[8] - عزة جربوع ، التناص مع القرآن الكريم في الشعر العربي المعاصر ، مجلة فكر و إبداع ، عدد 13 ، 2002 ، ص 134 .

[9] - عوض الغباري ، دراسات في أدب مصر الإسلامية ، دار الثقافة العربية القاهرة ، دط ، 2003 ، ص121 .

[10] - ينظر: إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 137 .

[11] - سورة الجن ، الآية : 28 .

[12] - سورة يس ، الآية : 82 .

[13] - سورة البروج ، الآية : 16 .

[14] - سورة آل عمران ، الآية : 5 .

[15] - سورة الجن ، الآية : 28 .

[16] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 159 .

[17] - المرجع نفسه ، ص 149.

[18] - المرجع نفسه ، 146 .

[19] - سورة الانعام ، الآية : 103 .

[20] - سورة الشورى ، الآية : 11 .

[21] - ابراهيم شعيب ، الديوان ، ص 137 .

[22] - سورة النازعات ، الآية : 30 .

[23] - سورة النازعات ، الآية : 32 .

[24] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 137 .

[25] - **ارْكَايِزْ** : جمع ركيزة ، وهي السّقب أطول أعمدة الخيمة .

[26] - سورة يس ، الآية : 38 .
[27] - سورة الرعد ، الآية : 02 .
[28] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 141 .
[29] - سورة الرحمان ، الآيات 26،27.
[30] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 164 .
[31] - سورة التكوير ، الآية : 18 .
[32] - ينظر: إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 56 .
[33] - سورة الجمعة ، الآية : 01 .
[34] - سورة التغابن ، الآية : 01 .
[35] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 137 .
[36] - سورة الأنبياء ، الآية : 104 .
[37] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 142،143 .
[38] - سورة المائدة ، الآية : 27 .
[39] - سورة المائدة ، الآية : 30 .
[40] - سورة المائدة ، الآية : 31 .
[41] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 142 .
[42] - المرجع نفسه ، ص 143 .
[43] - سورة الأنبياء ، ص 83 .
[44] - إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 143 .
[45] - سورة النمل ، الآية : 17 .
[46] - سورة ص ، الآية : 36 .
[47] - سورة النمل ، الآيتان : 18،19 .
[48] - سورة النمل ، الآية : 19 .
[49] - سورة النمل ، الآيتان : 20،21 .
[50] - سورة النمل ، الآية : 22 .
[51] - ينظر: إبراهيم شعيب ، الديوان ، ص 67 .
[52] - سورة النمل ، الآيات : 23،24،25،26 .
[53] - سورة النمل ، الآيات : 28،29،30،31 .
[54] - سورة النمل ، الآيات : 32،33،34 .
[55] - سورة النمل ، الآية : 35 .
[56] - سورة النمل ، الآيات : 36،37،38 .
[57] - سورة النمل ، الآية : 39 .

[58]- جلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، تق :الاستاذ مروان سوار ، دار المعرفة للنشر و التوزيع بيروت لبنان ، دط، د ت ، ص 499 .

[59]- سورة النمل ، الآية : 40 .

[60] - سورة النمل ، الآية : 42 .

[61] - سورة النمل ، الآية : 44 .

[62] - سورة سبأ ، الآية : 14 .

- **نبذة عن حياة الشاعر :**

هو محمد سفيان بن عبد الحفيظ و يوسفي حفصة ، ولد سنة 1946 بزمالة الأمير عبد القادر المشهورة باسم "طاقين"[63] بولاية تيارت، و جريا على عادة أهل المنطقة الذين اعتادوا على تحصيل أبنائهم القرآن الكريم منذ نعومة أظافرهم ، التحق شاعرنا بالمدرسة القرآنية أو ما يعرف بالكتاتيب بمسقط رأسه "طاقين" ، و حفظ من القرآن ما تيسر له حفظه ، ثم غادر مسقط رأسه متوجها إلى مدينة قصر الشلالة، و التحق –كما سبق ذكره- بالمدرسة الابتدائية الفرنسية وكان من المتفوقين فيها ، إلى أن غادرها بعد أربع سنوات بدعوى كبر سنه ، و بعدها سعى للالتحاق بالمتوسطة خراج مدينته ، و كان له ذلك حيث انتسب إلى متوسطة التعليم التقني بمدينة قصر البخاري ، و نظرا لعوزه[64] لم تستمر دراسته بها مدة طويلة ، لكنه لم يستسلم لهذا العوز والحرمان بل ظل يبحث عن السبل التي تمكنه من مزاولة دراسته إلى أن التحق مرة بثانوية "بن شكاو" بالمدية ، و مكث بها ثلاث سنوات و نال منها شهادة التعليم المتوسط "B.E.M" مزدوج اللغة وكان هذا متزامنا مع بزوغ فجر الاستقلال[65] .

ثقافته :

إن هذه المهن و الوظائف لم تشغل شاعرنا عن الاهتمام بالثقافة و التحصيل المعرفي ، فقد أنجز بعض الأعمال الثقافية و قام بنشرها و هو الأمر الذي أهله إلى نيل عضوية بالشركة الفرنسية العالمية منذ 1971 "SACEM" أي : شركة المؤلفين و الملحنين للموسيقى والناشرين و التي ناب عنها حاليا الديوان الوطني لحقوق المؤلف ، حيث واصل الشاعر نشر أعماله الأدبية ، و كان عضوا دائما بالديوان الوطني لحقوق المؤلف[66] .

و حتى لا نكون مقصرين في حق هذا الشاعر لا بد من الإشارة إلى اهتمامه الشديد بالشعر العربي الفصيح ، و في مختلف العصور الأدبية ، حيث انكب على مطالعته من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ، أما بالنسبة للشعر الشعبي فهو ذو ملكة إبداعية فنية راقية تجعلنا نصنفه في طبقات فحول شعراء الشعبيين المتميزين ، و هذا ما أدى إلى تغني المطربين بأشعاره وتوافدهم إلى بيته ، و على رأسهم عميد الأغنية الصحراوية الفنان خليفي أحمد الذي زار شاعرنا في بيته من أجل تزويده ببعض القصائد لتأديتها غناء[67] .

وفاته :

اختطفه الموت يوم الأربعاء 29 جانفي 2014 عن عمر يناهز 68 سنة .

مكتبة البحث :

القرآن الكريم.

قائمة المصادر :

1 - إبراهيم شعيب ، ديوان السلوان للشاعر الحاج محمد سفيان (امتداد لمدرسة عبد الله بن كريو) مع قراءة أولية في الأبعاد و الصور ، مطبعة رويغي ، الأغواط ، ط1 ، 2004 .

قائمة المراجع :

1- أبو زيد نصر حامد ، مفهوم النص "دراسة في علوم القرآن" ، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع بيروت لبنان ، دط ، 1996 .
2 - جوليا كريستيفا ، علم النص ، تر: فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب ، ط2 ، 1997 .
3 - جلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، تق : الاستاذ مروان سوار ، دار المعرفة للنشر و التوزيع بيروت لبنان ، دط، د ت .
4- يوسف وغليسي ، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر ، لبنان ، ط1 ، 2008 .
5 - مصطفى السعدني ، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ، دار المعارف القاهرة ، دط ، 1998 .
6 - نبيل علي حسين ، التناص في شعر النقائض "دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائض جرير و الفرزدق و الاخطل" ، دار كنوز المعرفة للنشر و التوزيع عمان الأردن ، ط1 ، 2010 .
7 - عوض الغباري ، دراسات في أدب مصر الإسلامية ، دار الثقافة العربية القاهرة ، دط ، 2003 .
8 - عزة جربوع ، التناص مع القرآن الكريم في الشعر العربي المعاصر ، مجلة فكر و إبداع ، عدد 13 ، 2002 .
9 - عزة شبل محمد ، علم لغة النص "النظرية و التطبيق" ، تق : سليمان العطار ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط2 ، 2009 .